

# مناقشات

اولهما : ان نظرية تين لا تدرس الان الا في المناحف . والنظريات النقدية المعاصرة تنكرها ولا تعيرها اهتماما كبيرا . وان لم يصدقتني صاحبي فليقرأ كتب الغرب . فاذا ذهبنا الى انه لا يقرأ آخر النظريات النقدية الغربية في بعض لغاتها الاصلية ، قلنا له : بان معظم النقاد الغربيين المعاصرين يرفضون هذه النظرية ولا يذكرونها في كتاباتهم الا من أجل ان يدهضوها ، ومن هؤلاء جنيت ، وبارت ، وفوكولت .

واذن فبأي حجة ذكر الكاتب حياتي وحاول ان يندسها ظلما وعدوانا طورا ، وجهلا وتجاهلا طورا ثانيا ؟ قد قلنا : انه لا يبرح يعيش على نظريات القرن التاسع عشر النقدية التي كان يروجها تين وسانت بوف . ولكننا رأينا فطاحل الغرب لا يؤمنون اليوم بهذه النظريات ، الا من تعلق منهم بالماضي السحيق . فذكر النساج لحياتي لا يعني الا تعلقه بنزعة نقدية متخلفة ، لانها نظرة رومانسية ابلأها الزمان ، وأكل الدهر عليها حتى شبع . فهي النظرية التي أرادت ، كما يقول اندري آكون ، ان تضمن النشاط الادبي شيئا آخر غيره ، وتخضعه لعلاقة تاريخية تربط الكاتب بحياته ونفسيته وزمانه . . . ان مثل هذا النقد الذي يبني حول الرواية المدروسة ، رواية أخرى يزعمها هي الصحيحة ، ناسيا الموضوع الأدبي كما هو ، لهو نقد لا يعدو ان يكون كلاما مركوما على كلام ، وكتابة جائمة على كتابة أخرى ( الأدب من الرمزية الى الرواية الجديدة ص. ٩٣ - ١٠١ ) .

اني لا اعتقد ان مثل هذه النظرة أصبحت تمت الى النقد العلمي بصلة وتقى . ولكن مصيبة النقد العربي لا يبرح ، بوجه عام ، عبارة عن تعليقات مرسلة ، وانطباعات غاضبة ، او تقریظات تافهة . وقد نشأ عن هذه الظاهرة المشاذة ، اندساس اشخاص معقدين طورا ، وجهلة ضيقي الأفق طورا ثانيا ، في أسرة الأدباء وراحو يعيشون . ان النقد الحق لم يعد تعليقا انطباعيا غاضبا مفرضا على النتاج الادبي ، بهذه البساطة . انه ليس كتابة انشائية تحول على الخيال ، كقصد النساج . بل لقد أصبح عالما ضخما من الحقائق التي يتوصل الناقد اليها بواسطة دراسة هادئة معمقة يجريها على النص الادبي كاتبه ، وينوظف الالفاظ لفهم الصور والمعاني . ولا يمكن ان يحكم بشيء الا بعد استنتاجات تقوم غالبا على ارقام مقارنة ، ونسب مئوية ذات دلالة مختلفة . ان النقاد الغربيين تخلصوا من مثل هذا الذي يصدر عن النساج وامثال النساج على انه نقد ، من حيث هو كلام ممزق يقوم على الانطباع الشخصي ، او الاجتهاد السطحي ، او على الحقد والحسد ، وهذه أسوأ أحواله . ولو قام النساج بتجربة علمية من هذا النوع ، لاهتدى بسهولة وبدون قصد ولا شعور ، بناء على المعطيات الناشئة عن دراسة النص دراسة مورفولوجية ، الى ان لكاتب « نار ونور » اسلوبا خاصا به ، وقاموسا فنيا يميز كتاباته . ولكن ما اكثر ما تضع الحقائق في أحوال الجهل ! فلو كان مقالك هذا مثلا اقصوصة ، لاجرينا فيه دراسة من هذا الجنس ، ولاهتدينا الى نفسك واسلوبك بدقة تحدها الارقام : أي الالفاظ اكثر ورودا ؟ وأي الصفات اقل استعمالا ؟ وهل كانت جملك طويلة او قصيرة ؟ وكما كان عدد القصير منها والطويل ؟ وما خصائص الطويلة ومميزات القصيرة ؟ ولم كنت تصطنع « جدا جدا » بكثرة ؟ ولم لم تستعمل العبارات الدالة

## دراسة بعيدة عن الموضوعية . .

### بقلم عبد الملك مرتاض

نتسبع حكاية شعبية في الجزائر خلاصة فكرتها ان رجلا ظل يعبد الله تسعين سنة ، فلما دنا أجله ، كفر بالله فمات كافرا . كما عرف واقعة أخرى ثورية ، ولكنها حقيقية ، وهي ان رجلا ظل يناضل من أجل الشعب دهرا طويلا ، حتى اذا ثار شعبه ، واستعصم بالجبال ، وانبرى الى المقاومة المسلحة ، تنكر له ذلك المناضل القديم ، فلفظه الشعب حتى مات منبوذا . وهاتان الحالتان المحزنتان تنطبقان على الجهود التي كان الدكتور سيد حامد النساج بذلها في مجال النقد التقليدي ، فلما أخذ عوده يقوى قليلا ، أحبط أعماله السابقة كلها في مقالة واحدة ، زعم انها نقدية ، ونشرها في مجلة « الآداب » البيروتية الفراء ، في عددها الصادر في يناير ١٩٧٨ ، وذلك حول رواية « نار ونور » التي نشرتها دار الهلال بالقاهرة في اواخر سنة ١٩٧٥ .

وقد احزنني أشد الحزن ان يؤول امر النقد العربي الى هذا الدرك والى تصفية الحسابات الشخصية . ولما وقعت على « الآداب » ورأيت ذلك العنوان سولت لي نفسي مع ذلك بانني سأقرأ مقالا علميا ، ولا علي ما يكون فيه من عنف ، ما قام على منهج موضوعي خال من الهوى ، بعيد عن الانشائية والديماغوجية ، بريء من الذاتية الصارخة . ولكن المفاجأة ، ولا مفاجأة ، ان شيئا من ذلك لم يكن ! وانما اخذت أقرأ كلاما هجائيا يقطر حقدا . . وقد كان كتب كثير من النقاد منهم أخوان من مصر ، وهما ماهر قنديل ، وحسن فتح الباب ، وأخ من العراق ، وياقون من الجزائر ، عن هذه الرواية ، فذم منهم من ذم ، ومدح من مدح ، ونقد من نقد ، ولكننا لم نرد قط على احد منهم ، لاننا نؤمن بحرية الرأي ، وجدوى الحوار ، ما سلمت النية . اما اليوم ، فنحن مضطرون الى الرد على النساج لان مقاله لا يمثل لا العلم ولا النقد ولا الموضوعية .

وقبل ان أشرع في مناقشة الصديق القديم الاخ النساج فقد كان يجب الا يتعرض لشخصي باستخفاف وازدراء ، وبهذه الروح الاستعمالية ، وكانني مجرم فر من وجه العدالة ، او متهم بالخيانة العظمى أفلت من قبضة الجزاء . . هل للنساج في ذلك حجة علمية ؟ قد يقول : ان هيبوليت تين اقام نقده على ثلاث : تأثيرات المشرق ، والبيئنة ، والزمان . وكان على القراء ان يعرفوا عن صاحب الرواية بعض المؤثرات التي اثرت في عمله الادبي . . وليأذن لي النساج ان اتجاسر على آرائه الفائلة ، وان أرنع في وجهه عصا العصيان ، فاعتبر « نار ونور » رواية من الروايات التي يقرأها الناس ، وتصور جانبها من الثورة الجزائرية بصدق ، على ما فيها من اخطاء فنية كثيرة . ولكن اي عمل فني سلم الناس بكامله المطلق ؟

بيد ان اقول النساج المفترض لا يقوم ، لسببين :

على الهدوء النفسي والتعقل والمنطق العلمي الرزين ؟ ولم تكثر الفاظ الطيش والنزق والغضب ؟ وما شئت من هذه الأسئلة التي قد لا تنتهي ، لأن كل حالة ستنشأ عنها حالة أخرى ، وكل نتيجة ستحتاج الى نتائج تدعمها وتدعمها . اما ان يجيء ناقد يعمل خياله الجامع في نص رواية ، ليكتب عنها رواية ثانية مزيفة يكون بطلها الاساسي « الخلاصي » هو هذا الناقد نفسه ، في حين يمثل كاتب الرواية الشخصية الثانوية الضحية ، ولكنها من نوع « الكومبارس » ، فذلك امر يرفضه العلم . وثاني السببين : لاعتبر ما ذكره النساج من حياة كاتب « نار ونور » حقا له ، لان حياة اي كاتب ملك للناس جميعا ، فما قوله في الكذب الذي نسجه من حول شخصي ؟ وكيف يقوم حكم على كذب ؟ وكيف نستطيع ان ننهي الى نتيجة علمية اذا كان الاستنباط كاذبا مكذوبا ، وباطلا مرفوضا ؟

ولكن اين هذا الكذب ؟ ولم استعمال هذه اللهجة ؟ اما الكذب فسنتكشف عن مواطنه ووقائمه من مقال النساج ، بعد حين . واما هذه اللهجة فهي من جنس لهجة الاستاذ النساج ، فمن اطلع من القراء على مقاله فقد عرفه ولا يفتقر الى ان اصفه له ، ومن لم يطلع فاني ائبته بان هذا المقال كان غير مهذب ، فكان صاحبه يكتب في الغابة لمن في الغابة . ولأول وهلة يدرك الذكي والغبي ، ان لهجة هذا الكاتب لم تهذبها الحضارة ، ويعدمها الالتزام الاخلاقي ، واللياقة التي تعارف عليها الكتاب . وبعض هذه الصفات في الحقيقة من خصائص شخصية النساج المعقدة .

والذي يطعن في احكام النساج وآرائه الإخطبوطية انه ظل يعمل تحت مسؤولية صاحب « نار ونور » ما يقرب من أربع سنوات . وبالإضافة الى ان نقاد الحديث كانوا يقولون : ان المعاصرة حجاب ، فان الذي يضعف من موقفك اكثر ، أنك لا تستند الى المعاصرة والمخالطة وحدهما ، وانما الى علاقة استاذ برئيس قسم . ويشهد الله انني امقت هذا السخف ولا ارتضي لنفسني الخوض فيه ، ولكنني مرغم على شرح بعض الأمور للقراء ، حتى يدركوا ما في الزوايا من خبايا .

ولأعد الآن الى مقال صاحبي لأحاول الرد على بعض ما جاء فيه ، وسأركز بوجه خاص على تصحيح الاخطاء التي وقع فيها الكاتب ، حول تاريخ الثورة الجزائرية وما يتصل بها ، وحول بعض مراحل حياتي التي نهشها . اما رايه في الرواية ، فاعتبره وجهة نظر شخصية ، لا حكما علميا مسلما ، لانه عدم العلمانية وحرم الموضوعية ، ونبا عن المنهج النقدي المعاصر الذي يقوم به الحذاق الأعمال الأدبية . ومع ذلك فاني احترم وجهة النظر تلك على علاقتها .

فقد نعى علي الدكتور النساج انني لغوي ، وأنني أقرأ للجاحظ وبيدع الزمان ، في الوقت الذي بقي هو بين بين : فلا هو ممن يهضم التراث ويفهمه حق الفهم ، ولا هو ممن ألم بالدراسات المعاصرة التي تعج بها نوادي المغربين وأسواقهم ، وانما تعلق بنظريات مترجمة ترجمة سلبية طورا ، ومشوهة اطوارا أخرى ، كانت موضة أدبية شائعة في القرن التاسع عشر ، وبعض هذا القرن ، فضل السبيل ، وضاع منه الطريق على حد تعبيره ، بل على حد تعبير نزار قباني .

اما المضحك في مقاله فهو قوله : « كان المؤلف الاستاذ عبد الملك مرتاض الجزائري ، قد التقى مصادمة والاستاذ صالح جودت رئيس تحرير الهلال في مؤتمر الفكر الاسلامي بمدينة تيزي وزو بناحية

وهران (!) في الجزائر ، عام ١٩٧٢ . حيث انتهز المؤلف فرصة اللقاء العربي الاخوي والقومي ، كما استغل حاجة القارئ العربي الى مزيد من التعرف — بالفرن — الى الثورة العربية الفريدة في الجزائر ، مستغلا كذلك فرصة اتساع رقعة انتشار روايات الهلال التي تطرح الآلاف الاعداد في السوق ... » .

ان الذي يتأمل هذا النص الذي ورد في كلمة الدكتور النساج يلاحظ ما يلي :

١ — « مرتاض الجزائري » : فلم اصطنعت هذه النسبة ؟ وما كان هدفك الادبي من ورائها ؟ وماذا يقال عنا ، لو قلنا : « الاستاذ النساج المصري » ! والشاعر نزار قباني السوري ، وجبران خليل جبران اللبناني ، وهلم جرا من هذه الانساب التي تكثر من الديار ، ونعدد من الجنسيات ، بدون اي معنى قومي . انها عبارة ، في رأيي ، سمجة ، ولا تليق بأسلوب اديب له ذوق أصيل ان يصطنعها في كتابته ، بصرف النظر عما فيها من نيل سياسي ، واعتبار الامة العربية جنسيات مبعثرة هنا وهناك .

٢ — « بمدينة تيزي وزو بناحية وهران ، في الجزائر عام ١٩٧٢ » . وهذه العبارة القصيرة فيها خطان اثنان :

اولهما جغرافي او مكاني ، وهو « تيزي وزو بناحية وهران » ، فإلله يعلم والملائكة والجغرافيون ، وحتى المعاديون من المستنيرين من الناس ، ان تيزي وزو هي نفسها عاصمة لولاية ، مثلها مثل وهران ، بهذه جامعة ، وبذلك جامعة أخرى . وكل هذا ليس مهما ، وانما الالم الحاق تيزي وزو بوهران ، مع ان بينهما ما لا يقل عن مسافة ٥٢٥ كلم . فتيزي وزو تقع في الوسط الشرقي من الجزائر ، من حيث تقع وهران في أقصى المغرب . فكيف غاب عن الدكتور النساج هذا ؟ اننا لا نلومه لانه يجهل الجغرافية ، فهو استاذ ادب قبل كل شيء ، وانما نلومه لانه قضى بهذه الديار أربع سنوات ، ولم يستطع ان يتحقق من مواقع المدن الكبرى فيها ، وكيف بتاريخ الاشخاص واتجاهاتهم ؟

وثاني الخطاين ، تاريخي او زمني ، وهو ان كاتب الرواية وثاني الخطاين ، تاريخي او زمني ، وهو ان كاتب الرواية لم يلتق بالرحوم صالح جودت في عام اثنان وسبعين كما زعم النساج ، وانما التقى معه في سنة ثلاث وسبعين .

٣ — « ... أنتهز المؤلف فرصة اللقاء ... مستغلا كذلك فرصة اتساع رقعة انتشار روايات الهلال ... » . فبالإضافة الى ما في هذه اللهجة من عناصر الحسد البادي الذي لا ينبغي ان يتحلى به رجل جامعي ، فاني لا ارى اين موطن الذنب ؟ وماذا قدم كاتب « نار ونور » الى الهلال من مال او مغريات حتى تنشر له روايته ؟ وماذا كانت تفيد العلاقة الشخصية العابرة التي ربطت الكاتب بالرحوم جودت ، في عمله الادبي اذا كان نافعا حقا كما تزعم ؟ وكيف غاب عن لجنة القراءة في دار الهلال هذا العلم العظيم الذي طالع الناس به شخص يقال له النساج؟ وكيف فاتته ان يؤثر على القوم ، وقد كان يعود الى القاهرة كل صيف من الجزائر ، وقد كنت اخبرته بان الرواية تحت الدراسة ، وأن الاستاذ جودت لم يعطني جوابا عن كونها ستنتشر او لا تنتشر ، وانما ربط القرار برأي لجنة القراءة أولا واخيرا ؟ وهل يدان كاتب اذا قدم نتاجه الى دار صغيرة او كبيرة للنشر ؟ وهل لم يفعل النساج الا بعض ذلك حين كان يقدم اعماله الى دور النشر متوددا متلطفا ؟ أم ان دارا مثل

اندلاع ثورة التحرير في الجزائر ، فيعود به الى الوراء تسع سنوات كاملات . فانظروا الى ارقام التاريخ كيف تزور ؟ وانظروا ، اذن ، الى هذا الجهل الفاضح بتاريخ أكبر ثورة عربية وافريقية في القرن العشرين ؟ ان « اي » من معانيها التفسير ، وانت ادعيت في مقالك انني تغلب علي النزعة التعليمية ، وقد وقعت ، انت ، فيما فررت منه ، كما كان يقول القدماء ، فاذا انت تفسر باطلا بباطل ، وتزييفا بتزييف ، حين تقول : « .. يتناول الثورة الجزائرية في اواخر ١٩٧٥ . اي بعد اندلاع الثورة الشعبية العظيمة في الجزائر بثلاثين عاما » . ومن المستبعد ان يكون النساج فكر في حوادث ثامن مايو ، وليس هناك مؤرخ يؤرخ بهذه السنة التي يتخيلها النساج . ويؤيد مذهبنا انه ، كما سنرى ، يجعل يوم ١٩ يونيو ، يوم ١٠ يونيو . وهي تواريخ لا توجد الا في ذهن الكاتب وحده ، فلا الرواية تصور الثورة الجزائرية في اواخر سنة خمس وسبعين ، ولا هي نشرت بعد ثلاثين عاما من اندلاع ثورة التحرير التي قامت ، رسميا وتاريخيا ، في فاتح نوفمبر من سنة اربع وخمسين من هذا القرن .

اما ما يسديه النساج من نصائح « ابوية » ، ودعوات « بابوية » الى الابداء الجزائريين فهم ليسوا مفتقرين اليها ، فلمهم شخصيتهم الأدبية القوية ، ولهم ايدولوجيتهم الثورية الاشتراكية . وكان اولي له ان يسدي بعض ذلك او كله الى سواهم ... وقديما نصح لنا المعلم سقراط بأن نبدا بانفسنا .

واعود لأسالك : من قال لك اني كنت بعيدا عن الثورة الجزائرية ؟ وماذا تصنع بشهادة النضال التي أحمل ؟ وهل تحسب انت ان الذي حتمت عليه الظروف القاسية ان يغادر وطنه ليلتجئ اضطرارا لا يعتبر ثوريا ؟ وهل تعتبر ، انت ، الآن الزعماء الفلسطينيين غير ثوريين ولا مناضلين ، لان المفروض حسب منطقك ، ان يؤوبوا الى بيفن القدر ، ليلقي عليهم القبض ، ويحكم عليهم بالموت ، ودليدة تغني لهم في المطار بالعربية : « سلامة .. سلامة ! .. » ؟

وما مفهوم النضال في ذهنك ؟ وماذا تقول عن قادة الثورة الجزائرية الذين كان كثير منهم خارج الوطن ؟ وماذا تقول عن ديغول الذي فر من وطنه فرنسا ، اثناء الحرب الثانية ، ليلتجئ الى لندن ؟ فهل يعتبر الشعب الفرنسي غيبا حين اعتبر هذا السياسي من اكبر رجالاته ؟ وماذا تقول عن الثوار الصحراويين والزمباويين اليوم ؟ لعل الذي حملك على الوقوع في هذه الترهات : جهلك بتاريخ الثورات ، وعدم مشاركتك في اي منها لا من قريب ولا من بعيد . ورجل من صفاته بعض هذا ، لا يستطيع ان يقوم ادبا يتحدث عن الثورة الجزائرية ، ولو اراد .

هل تعلم — يا من لا يعلم شيئا حقيقيا دقيقا عن الثورة الجزائرية، حتى تاريخ اندلاعها الذي تعرفه العجائز العربيات على امتداد الوطن العربي كله — ان قرية « مجيبة » التي كان الكاتب يقطنها ، قتلها الاستعمار الفرنسي فهدم ديارها ، ومحا آثارها ، وارغم سكانها على التزوح عنها ، حتى لا يساعدوا الثوار ، بعد معركة ظافرة لهم تدعى في تاريخ الثورة الجزائرية بـ « معركة الصبانية » ؟ وهل تعلم بأن الجزائري — والجزائرية ايضا — حينما وجد من قارات العالم ( ١٩٥٤ — ١٩٦٢ ) كان منظما في خلايا جبهة التحرير الوطني : يجتمع مرة في خليته كل اسبوع ، ويقدم مبلغا ماليا الى الثورة كل شهر ، وينفذ اوامر

فلاماريون ولاروس والمعارف ودار الآداب وسواهن من الدور ، يتنافس على نشر ما يكتب النساج ؟ اني أسالك : من المنتهز والمستغل ؟ الكاتب أم دار النشر ؟ وماذا ترى اني افدت من الهلال ؟ ويمضي الاستاذ النساج في التزييف ... فهو يغير الزمان فيجعل العام غير العام ، والمعقد غير المعقد ، كما يغير المكان فينقل تيزي وزو على رأس الثور الاسطوري خمسمائة كلم ليجعلها تقيم بناحية وهران ... يمضي في بعض هذا فيقول :

« وسيكون حديثنا ... عن كتاب نار ونور لانه يتناول الثورة الجزائرية في اواخر ١٩٧٥ . اي بعد اندلاع الثورة الشعبية العظيمة في الجزائر ، بثلاثين عاما ... » . واضعف ما في هذا الكلام انه غير ذكي ، وانه مشحون بالتناقضات ، وانه يزيف حقائق التاريخ جهلا . اما عدم الذكاء فيبدو في تناقض الكاتب الذي يعترف بان « نار ونور » كانت عرضت على دار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر فرفضت نشرها . وينشأ عن ذلك ان الرواية لا تصور الثورة الجزائرية في اواخر سنة ١٩٧٥ ، وانما كانت قد كتبت من قبل بكثير ، لأن عرضها على « الاسنيد » ينشأ عنه ضرورة مضي زمان لا يجوز ان يكون اقل من عامين لاعطاء الجواب بالرفض او بالقبول . فما يصنع الكاتب بهذا الزمان الطويل الذي طواه ، ووثب به الى اواخر سنة ٧٥ ، وهو تاريخ صدور الرواية بالقاهرة ؟

والتناقض الثاني ان الكاتب يزعم ان صاحب الرواية التقسّى بالاستاذ جودت في عام ١٩٧٢ ( اي في عام ١٩٧٣ على الاصح ) ، ثم يعود فيقول بان الرواية تتناول الثورة الجزائرية في سنة ١٩٧٥ . فكيف يستقيم هذا الكلام الهراء ؟ واي التواريخ احق ان يتبع في كلام الاستاذ النساج ؟

والحقيقة التاريخية ان الرواية كتبت في صيف سنة ١٩٦٤ بوهران ، ولم تكن يومئذ اي دار حكومية للنشر بالجزائر ، فبقيت مخطوطة الى أوائل السبعينات ، حيث قدمت الى الاسنيد التي لم ترفضها رسميا ، والمسؤولون في هذه الدار لا يزالون احياء ، وفي ادارة الشركة وناق ان ماتوا ، فانك ستبحث الف سنة وسنة دون ان تعثر على حرف واحد يثبت ان شركة الاسنيد رفضت « نار ونور » ، وانما التناقل في الجواب النهائي هو الذي دفننا الى سحبها ، والتماس وجوه اخرى لنشرها . وقد تلقيت وعدا بنشرها في جريدة « الشعب » ربيع سنة احدى وسبعين ، ولكن ذلك لم يتم لأسباب لا تعود الى رداءة الرواية .. وازمة النشر في الجزائر مما يعاني منه الابداء .

ولكن لتفترض جدلا ان الشركة الوطنية للنشر والتوزيع رفضت نشر هذه الرواية حقا ، وقبلت نشرها الهلال ، فهل ينشأ عن ذلك بالضرورة ما زعمته انت ، من ان الرواية رفضت في الجزائر لرداعتها ؟ اني أسالك : منذ كم كتبت مقالتك هذه حول الرواية ؟ ولم لم تنشرها قبل اليوم ؟ ليس ذلك يعود ، وهذا حق لا ريب فيه ، الى انك عرضتها على أكثر من مجلة عربية ، ورفضت نشرها ؟ فهل تالم «الآداب» الفراء الذائعة الصيت ، العظيمة السمعة ، حين نشرتها لك اليوم ؟

واما تزييف حقائق التاريخ فيبدو في هذه العبارة صارخا ضاحكا باكيا جميعا ، لانها صدرت عن استاذ ، ويدعي انه ناقد لان الناقد حين يستحيل الى مزور للتاريخ ، يجب ان تسحب منه الثقة ، ويعتبر كلامه كله لفوا باطلا . اما دليلنا على هذه المزاعم فان النساج يزور تاريخ

القيادة الثورية مهما كانت ؟ ام كنت ترى ان الثورة الجزائرية نجحت  
بالخطب والله اكبر ؟

اما وقد حاسبتني ، فاني ساحاسبك ايضا ، واسالك : اين كنت  
انت في سنوات ثمان وأربعين ، وست وخمسين ، وسبع وستين ، وثلاث  
وسبعين ؟ وماذا كانت مشاركتك في المواقف النضالية الرائعة التي  
وقفها الشعب العربي في مصر ؟ ماذا صنعت انت في كل هذا ؟ واين  
كنت ؟ ربما كنت حيث كنت في نوفمبر ٧٧ .

اما حصول كاتب الرواية على دكتوراه الطور الثالث في فن  
المقالات ، فما ذلك بمعب عند الجامعيين الكفاء . وفن المقالات يعتبر  
بحق ، كما يرى ذلك نقاد من العرب والغرب ، بداية للقصة العربية  
التي هيات انت في جانب منها شهادتك ، لو اتيت للفكر العربي ان  
يتطور على النحو المنتظر . فانت بحثت في الفرع ، من حيث بحثت انا  
في الاصل . ولك ان تعلم بان الشهادات لا تعني ابدأ العلم ، وانما  
هي اوراق شقية ينالها الشخص ويقدمها الى الادارة التي يعمل فيها ،  
ليحصل بها على قوته . اما العلم الحقيقي فهو في البحث والتحصيل  
المستقلين . وقرر مرة اخرى ، بان دراسة التراث ليس مما يشين ،  
بل مما يشرف وانت على كل حال لا تستطيع ان تفهم مقامة واحدة  
مع انها مكتوبة بلغة الضاد ، وهذا من اكبر عيوب اصحاب المعاصرة  
السطحية التي لا تقوم على جذور ، وقد انقطع منها الرأس . ونحن  
قد رأينا اندري ميكايل يكتب دراسة عن شعر لبيد ، ويقرر في بعضها  
ان كثيرا من هذا الشعر يعتبر حديثا جدا . فمفقتك للتراث ، لا يعني  
نبذنا له ، وازورارك عن القديم ، لا يعني الا انك لا تعرف الحديث .  
والمقالات القديمة لم تمنعني اليوم من ان اهيبء بالفرنسية بباريس ،  
دكتوراه الدولة في الأدب المعاصر . اما ادعاؤك بان رسالتني حول  
المقالات لم تطبع ، فذلك خطأ ، لانك ابدأ تفكر الى الوراء وتؤمن  
بالرجعة ، فانت تعيش بوهمك في سنة ١٩٧٤ . وان لم تصدق فاسأل  
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر .

ومما جاء في مقال النساج المتحامل قوله : « هذا المؤلف أذن تلقى  
تعلما تقليديا بقرينه ... ولم يرغب لذاته البقاء على هذه الارض العربية  
التي كانت واقعة تحت الاستعمار .. وانما أثر الاعتماد ، لكن الى  
اين ؟ الى فرنسا المستعمرة التي تستوطن ارضه ، وتنتهك حرمة  
شعبه ... وهو لم يهرب ( !! ) بحثا عن وسيلة للنضال ، او جريا  
وراء مبادئ تحررية ، او كمشا لاساليب دعائية لثورة شعبه ، وانما  
ابعد لصحة خاصة جدا جدا ( !! ) هي العمل الخاص الفردي الذاتي  
المتعلق به وحده دون غيره » .

ان أي كاتب من الكتاب اذا تلقى تعليما تقليديا لا يقصد ذلك في  
شخصيته اذا اصبح شيئا . والكتاب والمنفقون الجزائريون الذين  
عاصروا الثورة الجزائرية جميعا تلقوا تعليما تقليديا ، الافة قليلة  
مستثناة . وطه حسين ممن تلقى تعليما تقليديا في قرينه ، ثم في الازهر .  
ولكنه نال درجة جامعية من باريس ، واصبح من اكبر الابداء . فاين  
كنت تريدني ان اذهب والاستعمار جائم ، والظلم متسلط ، والجهل  
منتشر ؟ اذهب الى مدارس الفرنسيين ؟ اني كنت ابن فلاح فقير ،  
ولم أكن ابن اقطاعي يقيم في المدينة ؟ وهل اذا عيرك طالب بمسدرج  
الابراهيمي بانك ابن فلاح متخلف ، بعد ان استفزرت عواطفه ، تحاول  
اليوم ان تلجئ الى « المعوض » كما يقول علماء النفس ، لتنفس عن

قلبك ؟

نعم ، لقد تلقيت تعليما تقليديا بقريني ، وكنت احث على الحبير ،  
وأكل خبز الشعير ، وأشرب من ماء الغدير ، وأتأم على الحصير ،  
( ولا تنزعج من هذه الاسجاع التي تلائم المقام : فهي ان شئت للتعظيم  
وان شئت للتحقير ) ولكني تطورت وتعلمت في جامعات عربية وغربية ،  
وأصبحت الان اكتب ابحائي للهيئة الوطنية للبحث العلمي باللغة الفرنسية ،  
واصبحت أقرأ الان روب ، ورولان بارت ، وفوكول ، وجنيت ، ودريدا ،  
وتودوروف ، وفلايدير بروب ، وسطروس ... وسوى هؤلاء من  
اصحاب العلم والنظريات النقدية التي ادت الى تأسيس ما يمكن  
تسميته بـ « علم الأدب » . ام كنت تصبني الآن عاكفا على تلاوة  
الاوراد ، متعاميا عن ثقافة العصر ، مرددا : « الله هي ! الله  
هي ... ! » .

كيف تتدخل فيما لا يعنك من امر الناس ، فتحاسبيني لانني سافرت  
الى فرنسا من أجل العمل الكاد بها ؟ هل كنت تعلم ان اسرتي كانت  
فقيرة ، وما كان يمكنها ان توفر لي القليل من المال لطلب العلم ؟ وهل  
تعلم ان فرنسا انما كانت تعطي منحها للذين يدرسون باللغة الفرنسية  
فقط ، اما اصحاب العربية فكانت تصب عليهم اسواط العذاب ؟ وهل  
كنت تعلم بانني انما سافرت لفرنسا ، لاعمل في افران الاستوري النارية  
التي « تشوي » الوجوه فعلا ، من أجل جمع بعض الفرنكات للالتحاق  
بمعهد ابن باديس ؟ وهل كنت تعلم بان الجزائر تجاورها سبعة بلدان ،  
وقد كانت كلها مستعمرة اما من فرنسا ، واما من ايطاليا ، واما من  
اسبانيا : فاين اذهب ؟ وهل اصبح العمل الشريف مسة يدان عليها  
الناس ؟

ثم هل علمت بان ذهاب كاتب الرواية الى العمل بفرنسا كان قبل  
قيام ثورة التحرير ؟ فهل يعتبر مليما من يجهل ما يخبئه المستقبل من  
احداث ، بحيث يبقى في قرينه يقتله الجوع مستسلما للقضاء والقدر ،  
ينتظر الوحي من السماء عساها ان تنبئه بتاريخ اندلاع الثورة ، حتى  
لا يلومه اليوم كاتب مصري ( لا تنزعج من هذه النسبة ، فقد قلت لي  
انت : الجزائري ، مرتين اثنتين - وألبادى اظلم ) يقال له النساج .  
ان كاتب الرواية في صباه اراد ان يطلب العلم ، الذي هو حق  
لكل انسان وليس ميزة ارسقراطية كما يراه النساج البورجوازي الفكر  
فلم يجد المال ، فبحث عن العمل في فرنسا المستعمرة ، لان فرنسا  
المستعمرة هذه ذاتها ، كانت موجودة بالجزائر ، ولم توفر للناس العمل  
فيها ، فهل كان الفتى يذهب ليبحث عن العمل عند ابناء يعقوب ... !!  
ان فرنسا كانت موجودة بفرنسا - ارضها - نفسها ، وكانت موجودة  
بالجزائر التي هي غير ارضها ، ولكن امر طردها لم يكن قضية شخص  
واحد حقير مهما عظم ، وانما كان قضية شعب بأسره ، وذلك ما كان .  
واني أسالك : هل تعلم بان هوشي مينه ، الزعيم الفيتنامي  
العظيم ، كان يعمل بفرنسا قبل ان يصبح زعيما ؟

اما تعبيرك لي بالتعليم ، فلا أدري ما أقول لك ؟ انك لو كنت ممن  
يعقل لما عبرت شخصا تعلم اللغة العربية ، في عهد كان الاستعمار  
الفرنسي فيه يخفق كل متعلميها ومعلميها معا بطريقة او بأخرى . انك  
في هذه بالذات حرمت التفكير المسليم ، وابنت عن بعض افكارك التي  
تشبه افكار الاقطاعيين الذين يرون التعليم يجب أن يكون وفقا على  
طبقة خاصة . الا ترى بان المتعلم في عهد الاستعمار ، في تلك الظروف

النساج الذي يقول : « ... وهو يؤخر ان يعود الى الجزائر ليس فقط بعد الاستقلال ، بل بعد ان تستتب كل الامور المهنية لامتيازات هذه القلة التي جاءت لتلتقط الثمرة (!) ... بعد الانتفاضة الثورية في ١٠ يونيو (!) ١٩٦٥ ، اذ يعود المؤلف ١٩٦٨ (!) ليعيد دراسته العالوية في الإقامة ، مبتعدا كذلك في دراسته بالزمان وبالشخص وبالمكان وبالوضع وباللغة وبالفكر ... » .

ويضيف النساج كاذبا على الجميع ( على الكاتب ، وعلى تاريخ الشعب الجزائري المعاصر ، وعلى قراء « الآداب » ) :

« والمعلومات التي نقلناها مدونة على غلاف كتاب مطبوع » .

وكانه كان يلج على هذا التزييف ويصر على هذه الفضائح التي اوقعه فيها جهله وحقده معا ، ولذلك نراه يؤكد الكذبة باختها بدون ارعاء في موطن آخر من مقاله المشديد التثويثي : « وعاد ( صاحب الرواية ) بعد الاستقلال بست سنوات او اكثر » .

فاوضح الان للقراء الازيف الوارد في مقولة هذا الرجل الذي ما قصد الى العلم ولا الى الادب من وراء كتابة هذا الهراء :

١ - ان كاتب الرواية عاد الى الجزائر في صيف سنة ثلاث وسنين ، وهي السنة التي تخرج فيها . وكان قبل ذلك عاد الى الجزائر مع اللاجئين بمجرد ايقاف النار .

٢ - ان التصحيح الثوري في الجزائر لم يقع في ١٠ يونيو سنة ١٩٦٥ ، وانما وقع يوم السبت ١٩ يونيو ١٩٦٥ ، فلم زور النساج تاريخ الشعب الجزائري ؟ فهو كمن جعل ثورة ٢٣ يوليو ، في ١٤ من هذا الشهر ذاته ، وهو اليوم يذكرنا بعيد وطني فرنسي . ولو كان النساج ممن لا يدعي دقة الالام بالقضايا الجزائرية والمغربية بوجه عام ، لاهملناه ولما لهناه . ولكن كيف نسكت عن نصب نفسه مختصا في الدراسات المغربية واصبح يكذب على الناس ، وقد نسي او جهل ان الاقدمين كانوا يقولون : « كذبة المنبر بقاء ! » . والمؤلم حقا ان الدكتور النساج ظل يقطن طوال اربع سنوات قرب اكبر ملعب في القرب الجزائري كله وهو « ملعب ١٩ جوان » ، ومع ذلك لم يذكر شيئا من هذا ، مما يبرهن للقارئ بان هذا الرجل لم يكن في الجزائر يحيا بقلبه وروحه ، وانما كان يحيا بجسمه فقط ... وهذا يكذب بالدليل المنطقي على ان الحضور لا يكون بالجسم ، وان الارتباط بالوطن او بأي مكان آخر لا يكون ماديا فقط في جميع الاحوال ، وانما يكون ارتباطا روحيا ووجدانيا ، ولا سيما اذا كان قد قضى فيه الشخص ثمانية عشر عاما من ايام صباه ، قبل ان يغادره مضطرا لينغيب عنه جسما بضعة سنوات .

٣ - ان موضوع الرسالة لا حق لك في النعي عليه ، لانه امر يتصل بالمول العلمية ، وقد سبق ان قررت ما قررت حول هذه القضية ، في بعض هذا المقال . وقد سبق لي ان قلت ايضا : بان المقامة الراقية في كثير من خصائصها الفنية ، قصة تقليدية لا ينقصها شيء ، ومن ذلك المصيرية . والمستشرقون حين يتحدثون عن الادب العربي ويترجمون طرفا من النتاج القصصي ، يتدنون بالمقامة ، لانهم يعتبرونها هي ايضا قصة . فهل يتهم المستشرقون بانهم يجهلون التمييز بين القصة وغير القصة . وقد ذهب صاحب كتاب « قصص عربية » وهو روني خوام الى ابعد من ذلك فراح يبرهن بالحجة العلمية على ان المقامة هي اصل القصة القصيرة عند الغربيين انفسهم ، وبرز الاثر الذي تركه هذا

المدلهمة ، نضال بعينه لا ينقصه شيء ؟ ثم كيف يعقل لدى من له الملم بأبسط مبادئ النقد التقليدي الذي لا تعرف سواه ، ان يتعلم شخص في الجزائر اللغة العربية بقسنطينة ، مهد النضال والعلم ، اثناء السنة الدراسية ( ٥٤ - ٥٥ ) والثورة في عنفوانها ترمي بالحمم كالبركان الهائل الهادر ، دون ان يتأثر بأحداث هذه الثورة ، الا ان يكون معنوها مخبولا اصم ابكم اعمى ، ولا اخاله مع ذلك ! وما قولك في ان معظم تلاميذ ابن باديس بقسنطينة التحقوا بالثوار ، واستشهد كثير منهم ؟

والاستاذ النساج ، حين يعدمه الخيال الخلاق ، يفزع الى الاوهام ليفترف منها افكاره الرجعية فتراه يتقول على كاتب الرواية : « .. بينما هو في الجزائر يدرس ليكون متميزا (!) من طبقة خاصة (!) ... والفترة الزمنية قصيرة جدا ... انها سنة دراسية ، وليست سنة ميلادية » .

فما هذا الكلام ؟ ايعير الشخص اذا تعلم وعمل ؟ اي تميز ؟ وهل تعتقد ان الذي كان يدرس العربية في عهد الاستعمار بالجزائر ، كان يدرسها من اجل وظيف او امتياز يناله ؟ الم تعلم بان الناس في تلك الفترة عندنا انما كانوا يدرسون العلم من اجل العلم ، وكانوا يتعللون في مجالسهم الببسة ويتعززون بهذا القول المأثور : « طلبنا العلم ليعير الله ، فأبى ان يكون الا لله ! » ؟ انه لان المحزن ان يصدر مثل هذا القول عن شخص مثلك .

ثم ماذا تقصد بقولك : « طبقة خاصة » ؟ فهل ابن فقير بئس لم يكن أبوه يملك حتى حمارا حقيرا ، يستطيع ان يوصف بانه طبقي ، وتميز ، لو لم يكن الجهل بحياة الكاتب هو الذي جعلك تزخرف هذا الهراء . ان الذبن يعرفون الدار التي كان الكاتب يقطنها مع اسرته في البداية العطشى ، والواقعة في احراش بورية ليس فيها الا الافاعي والعقارب ، سيفتلهم الضحك حين يقرأون النساج ، وسيدركون بلا ريب ان كلامه ليس كذبا مفضوحا فحسب ، ولكنه سخف .

ومن روائع تهويلات النساج التي تدل على براعته الفائقة في الجهل بالتعبير العربي الذي زعم انه تعلمه ، قوله : « سنة ميلادية » . فالكاتب خانه التعبير حتى عن كيف يصوغ حديثه حين كان يتحدث عن العام ، لفرط غضبه حين شاهد الرواية تباع بالقاهرة ، ويقروها الناس ، فاذا هو يعزو الزمان الى السيد المسيح ، على غير ما يتحدث به الناس في التعبير عن هذه الفكرة بالذات ... انه لا يقال هكذا ابا ، عليك ان تبحث انت بنفسك عن كيف تعبر ...

ومن تزييفات الاستاذ النساج وكذبه على قراء الآداب قوله : « واستنهر ( كاتب الرواية ) بالمغرب طويلا » . وقد اصطنعها الرجل بين مزدوجين كأنها مأخوذة من ترجمة حياتي . وهي خيانة علمية نحاسب عليها طلابنا حتى في الثانوي . فغلاف الكتاب لا يبرح قائما ، وليس فيه اي لفظ يقال له « طويلا » . وما كان لنا لتعرض لهذه الجزئية ، لولا ان النساج اقام عليها نتيجة تتمثل في كون صاحب الرواية كان منعزلا عن المجتمع الجزائري ، ولا يرتبط به الا بالاسم ! .. لماذا ؟ لانه عاد الى الجزائر ، فيما يكذب النساج متمدا ، خلال سنة ثمان وستين ! وهذا من اشنع الكذب واقبح الجهل يرتكبهما النساج مختارا لا مضطرا ، فكيف يستطيع افانك ان يؤرخ للرجال ، اذا كان يكذب عليهم وهم احياء يتحركون ويبتشون ؟ وحتى لا يكون قولي ادعاء ، ها انذا اورد كلام

الفن في نتاج اقدم كاتب ايطالي كبير وهو بوكاسي ( ١٢١٢ - ١٢٧٥ ) في الوقت الذي برهن فيه على تأثير بوكاسي في الابداء الفرنسيين ، مما جعله يخرج بنتيجة علمية عظيمة خطيرة ، وهي ان للمقامة العربية فضلا كبيرا على الفن القصصي في الغرب بوجه عام ، وفي ايطاليا وفرنسا بوجه خاص ( انظر المصدر السابق : صت : ٩ - ٢٢ ) . فهل يحق للمختص العربي في القصة الحديثة ، ممن يحترمون انفسهم ، ان يجهل عظمة هذا الفن الادبي العربي الذي كان هو في الاصل ، مصدرا للقصة الحديثة في العالم كله ؟ ان الاستاذ النساج لا يستحي ان يجهل هذا فقط ، ولكنه يوبخ الذين يدرسون هذا الفن الادبي ليربطوه بحاضر القصة العربية التي يزعم من لا علم له ، انها اثر من آثار الآداب الغربية .

ولو هيات رسالتي في فن ادبي ، يفترض وجوده قبل الجاهلية الاولى نفسها ، لما ندمت على ذلك ، بعد ان اتصلت بيني وبين الدراسات الغربية المعلمنة الاسباب ، وعدت اقرا آخر النظريات التي تلقي بها دار «منتصف الليل» . فما عار ان يجمع شخص بين التراث والمعاصرة ، وانما الميب ان يظل التراثي منفصلا متحجرا جامدا ، والمعاصر جاهلا مشمخرا بانفه ، جاهلا اصل اديبه وثقافته . ولا احسب ان عاقلا يخالفني في ان التراث يجب ان يبعث ويوظف لحاضر الامة العربية الممتحنة في هذا الحاضر . ولا يمكن ان يكون هذا الاحياء الا بالمناهج العلمية الحديثة المتطورة التي تعتمد على الرياضيات والآلات الالكترونية . فلا يمكن ان يدرس شعر النبي دراسة علمية تجري على نمطه ، الابنهج مورفولوجي بنيوي . وقد رأينا اندري ميكائيل يفرج دراسة حول حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة ، في منهج بنيوي مورفولوجي رائع ، استفرد اكثر من ثلاثمائة صفحة : فقد درس الكاتب الشخصيات بطريقة بنوية فذة ، تقوم على الجداول والنسب المثوية المتعددة المقارنة . ولو اطلع عليه الدكتور النساج لكنت خشيت ان يفرقه الحياء في النيل مما يكتب هو عن القصة حين ينقدها ، ولا سيما ترهاته التي حاول ان ينقد بها « نار ونور » ، حيث اعتمد منهجا انطباعيا ذاتيا تهجيا انشائيا ، كله عواطف ومغالطات . فالى الله تشكو ما آل اليه امر النقد العربي ، الى ان يقوم جيل مثقف حقا بثقافة عصية فعلية متطورة لينفض عنه هذه التقريطات والتقريعات والانطباعات الذاتية .

{ - ان رواية « نار ونور » كتبت في سنة ١٩٦٤ ( ولو فتح تحقيق قضائي لتقدم لي شهود يؤيدوني ، ولقدمت وثائق مخطوطة لا يمكن للعالم ان يطعن في تاريخها ) ، فما صلة رسالة جامعية نوقشت في سنة ١٩٧٠ ، بشخصيات رواية وصياغتها ، وقد كتبت قبل ذلك بست سنوات ؟ وما يمنح المرء علميا ، ان يبحث في اصول الشعر الجاهلي وما قبل الجاهلي ان كان هناك تاريخ معروف له ، وفي الوقت ذاته يكتب الرواية الجديدة نفسها ، بطريقة جوبوسكي ، وسمويل بيكي ، او حتى زينو كازينو .. ؟

٥ - اما ما يدعيه النساج من انه نقل بعض تلك المعلومات من غلاف الكتاب ، فهو محض افتراء . وغلاف الكتاب شاهد على ذلك ، فلا مدعاة للاطالة .

والحق اننا لو ذهبنا نناقش النساج وننقض اقواله قولا قولا ، ونكشف عما في طياتها من تزيف طورا ، وجهل طورا ثانيا ، لانا من هذا الحديث مجلدا ، ولذلك نجترى بهذا لنتنقل الى مناقشته قليلا في رايه حول الرواية . ولو لم ينظر النساج ، والتزم المنهج العلمي

الموضوعي ، ولم يبد غضبه ، ويكشف عن نزقه ، لاحترمنا رايه في الرواية وسكتنا عنه ، لانا لا ننتظر من احد ان يقدم في أي عمل من اعمالنا قصيدة مدح ننضح بالنفاق والرياء ، ولكن النساج لم يلتزم الاخلاق العامة التي تعارف الكتاب عليها شرقا وغربا ، فوجب الرد عليه في بعض المواطن التي زل فيها .

ومما يقرر من رأي حول الرواية قوله :

« ببساطة شديدة جدا ( وقد اكثر الرجل من لفظ « جدا » ) في مقاله هذا حتى نال منه مقدارا كبيرا ) تحكي الصفحات بطريقة انشائية ، مليئة بالتقعر اللغوي ، كيف اضرب الطلاب في مدينة وهران عن الدروس ، وكيف كانوا ينظفون في الشوارع ، بأسلوب بعيد جدا ( وهذه «جدا» اخرى يستهلكها النساج ) عن الاسلوب الروائي ، وفي شكل لا يرتبط بفن الرواية في اواخر السبعينات .. » .

الحمد لله ! اخيرا وصل الناقد البارح الى نص الرواية ، بعد ان هجا صاحبها بالنثر السمج ، وعيره طورا بالفقر ، وطورا بالطبقية ، وطورا بالتقليدية في التعليم ، وطورا رابعا بالتميز في هذا التعليم . والانساج في ذلك يعتبر بارعا في اتقان اسلوب النقاب . فهو يجعل كاتب الرواية تقليديا في دراسته ، ولكنه ينسى هذا ويقرر بعد قليل بانه حصل على مؤهل جامعي عال ، لم يحصل عليه غيره ، فيما يزعم . وهو من وجهة يعترف ضمينا انه كاتب روائي ، والدليل على ذلك انه تحدث عن الشخصيات - حديثا تقليديا ساذجا لو قرأه البنيويون لماتوا كددا غيرة على العلم والنقد كيف يبعث بهما - والحوار والصراع فيها ، وان كان حديث المتحامل الحاقد ، ولكنه لا يتردد في ان يعزوني الى اصحاب الدراسات القديمة جهلا ، وهو لا يعلم انني في دراساتي الاخيرة اطبق المنهج البنيوي ، واصطنع السنكرونيزية طورا ، والدياكرونيزية طورا ثانيا في دراسة النص الادبي وفهم خصائصه . ثم هو يجعلني ممن كتب عن القضايا الكبرى في الجزائر كاللغة العربية ، والتعريب ، والثورة الثقافية ... ولكنه لا يخجل ان يقدمني الى القراء على اني لا ارتبط بالجزائر الا بالاسم . ثم هو يجعل كاتب الرواية في فرنسا ، انما « يعمل ويكدح ليزيد انتاج وثروة وتطور فرنسا » ( والاسلوب العربي الاصيل يابى هذه الصياغة الهجينة ، وكان عليك ان تستكمل ادوات الكتابة قبل ان تكتب ، بل قبل ان تنقد ) ، بينما يجعله « في الجزائر يدرس ليكون متميزا ، من طبقة خاصة (!) » . فكاتب الرواية يجب ان لا يكون بشرا من الناس ، لان الناقد يصوره وكأنه شيطان رجيم يتمثل في صور شتى ، فهو هنا ثري مترف طبق بورجوازي ، وهو هناك عامل كادح أجبر بالساعة حقير .

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد ! فكاتب الرواية في رأي النساج يصدق عليه المثل الفرنسي : « ان جان هو الذي يبكي ، وجان هو الذي يضحك !! » .

وهو حين آب الى مصر الشقيقة العزيرة ، سولت له نفسه انه اعلم الناس بالدراسات المغربية عامة ، والجزائرية خاصة ، فراح يكتب في كثير من المواطن والمواقف بغير علم ، واسوأ من ذلك ، بغير موضوعية وباردراء واستعلاء ، كان الله لم يخلق على هذه الارض شخصا يضاهيه علما وكفاء !! وهو حين يتقمص تلك الشخصية التي تزعم انها تلم بهذا العالم من القضايا والموضوعات ، يصدق عليه المثل الشعبي الجزائري : « الله يجملني غريب وكذب ! » ، او المثل الفرنسي : « ما اجصل »

الكذب لمن يأتي من بعيد ! » . وليغفر لي الصديق القديم الاستاذ النساج هذه الامثال التي جعلته مضربا لها ، فهي ليست قديمة كما ترى ، وهي على كل حال خالية من اللغة التي تستغربها فتستقفرها ، وتجهلها فتستفضلها ، بل بعضها حديث « جدا جدا » ، وبعضها غربي « جدا جدا » ، ايضا .

ولنحمد الله تارة اخرى ! فلقد وصل صاحبي الى الرواية ونصها ، بعد ان استغرق شتمه لصاحبها ما لا يقل عن نصف المقال . ان مقالك لو كان موضوعا انشائيا تقدمه الى استاذ في مدرسة ثانوية لصفرك تصفيرا ، لان المقدمة فيه استغرقت نصفه ، وهذا مما يعاب على التلاميذ ، فكيف بالاساتذة ؟ ! ولكن شتم الرواية لم يكن بأقل من شتم صاحبها والاستخفاف به .

نعم انها تحكي قصة مظاهرات سخط على الاستعمار افضت الى تحرر واستقلال ، ولكن النساج حين جاء يكتب في سنة ٦٧ عن مظاهرات الشعب المصري الكريم ، لم يستطع كتابة رواية ، ولا قصة ، ولا حتى اقصوصة ، وانما كتب « غزلا » - لا ينتمي الى العفيف ولا الى الاباحي - يمدح به ، مع انها مظاهرات تأييد جاءت بعد انهزام ! ..

اما ما يتحدث عنه النساج من جهل كاتب الرواية بطبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة ، فان الامر كان يتعلق بمجتمع جزائري محافظ كل المحافظة . فلم يكن من الامانة التاريخية ان يصور كاتب الرواية المرأة المصرية وعلاقتها بالرجل في القاهرة مثلا ، وانما يتحدث عن المرأة الجزائرية في سنة ١٩٦٠ ، وليس سنة ١٩٧٥ كما اوحى النساج بذلك الى قراء الاداب ، مزيفا الحقيقة ، عابئا بثقتهم ، لان الرواية انما تدور ايام ثورة التحرير ، وكانت كتابتها بعد الاستقلال بسنتين فقط ، ومن الغبن ان يخوض الكاتب فيما يجهل . ومن اجل تلك المحافظة المصروبة على المجتمع الجزائري في تلك الفترة ، اضطر صاحب الرواية لان يجعل فاطمة قريبة لسعيد ، حتى يمكن اللقاء بينهما ، ولكنه لقاء من اجل خدمة الثورة ، لا من اجل اشباع رغباتها الجنسية كما يريد النساج ، لانه يجهل ان الرجل كان يؤخذ بالظنة فقط ، فيما يتصل بهذه العلاقات المشبوهة التي يمكن ان تكون بين رجل وامرأة ، فالثورة الجزائرية قيم اخلاقية ايضا ، قبل ان تكون اي شيء اخر .

وينقم مني صاحب المقال ان فاطمة امست زعيمة فجأة ، وذلك مناقض للحبكة الفنية في الرواية ، او في الكلام « المفاضي » كما يعتبرها النساج ، وهو لو تأمل تطور الاحداث في الرواية بعمق ، لاهتدى الى ان والدها كان يهرب الاسلحة من الجيش الفرنسي ، ولم يكن يثق في سعيد كل الثقة ، مخافة ان يستكشف السر مستكشف ، ولكن فاطمة بحكم بنوتها كانت تعلم كل شيء ، فلما القي القبض على قدور ابيها ، واخذ الى الابد ، وكانت تحب ابن عمها سعيدا ، وكانت الى ذلك تعلم انه اصبح فدائيا ، اطلعت على السلاح ، ثم تزعمت بحكم كل هذه العوامل نساء الحي ، واصبحت تقودهن . فهل كان النقود ينتظر من الروائي في هذه الحال ان يكتب فصلا يصف فيه كيف نصبت الفتاة مناضلة قائدة في الحي ؟ ثم اين خيال القارئ وكاؤه ؟ ان الروائي او القصاص او حتى المسرحي لا يفصل كل شيء ، وانما يترك كثيرا من الجزئيات والملاحق للقارئ او المشاهد او الناقد الذي من مهامه انه يوضح المواقف الغامضة في العمل الفني ، ويفصل الجزئيات التي تعمد الكاتب ان يهملها لغاية او لآخرى . وما كان النقد قط تهديما وتشنيعا .

والنساج في حقيقة الامر ، اذا جاوز هذه الامور العامة المتعلقة بالشخصيات المسطحة والمعمقة والمكعبة ، يقف حماره في العقبة ، وتصبح احكامه تافهة .

واما ما يرمي الناقد به صاحب الرواية من ضيق في الرؤية ، وتخلف في الرأي و... و... وكل ما يمكن ان يوصف به شخص امي بيتن الامية فان ابسط قارئ عربي يدرك ان التخلف العقلي انما يجب ان ينصب على كاتب المقال الذي شتم من حيث اراد ان ينقد ، وأساء الى العمال الجزائريين المهاجرين جميعا من حيث اراد ان يذم صاحب الرواية ، كما اساء الى جميع اللاجئين الجزائريين الذين فروا بانفسهم من اضطهاد الاستعمار الفرنسي ، بل اساء الى الثورة الجزائرية المنظمة .

وقد سبق ان بيتنا للنساج ان النقد التقليدي المنحاز الذي طالعنا به ، لا يعتد به اليوم عقلاء الجامعيين . لان الرأي اذا اصبح اجتهاديا او انطباعيا ، لا يعدو ان يكون هراء .

ويرى النساج ان شخصية خديجة ، اخت سعيد ، لا معنى لها . وهي وجهة نظر قد نحترمها له ، ولكن ما قول صاحب المقال في شخصيات « الكومبارس » في الاعمال الادبية الدرامية ؟ وهلا اهتدى الى ان وجود خديجة يعني اشياء كثيرة منها : ان ابا سعيد حين كان قتل في الحرب العالمية الثانية ، دفعا عن فرنسا قسرا ، ترك اسرة تتألف من ثلاثة افراد ، ولم يكن منقطعا . والميت حين يترك اسرة يكون موته اشنع واشد تأثيرا في النفس ممن لا يترك وراءه زوجا ولا اولادا . ومنها ان ظهورها يوحي بكيفية معاملة الجيش الاستعماري حين كان يغير على الحرمات فينتهكها ، فقد اراد جندي ان يفعل بعض ذلك بخديجة هذه ، ثم ان استشهاد سعيد آخر الامر ، يوحي بانته ترك اسرتين ، او مجموعتين من النساء ، هما اخته وامه ، وفاطمة وامها ، بعد ان كان قد قتل ايضا . والنتيجة العامة ان الشعب الجزائري كله شارك في الثورة ، الا خوذة قلة قضت عليهم هذه الثورة وقصمت ظهورهم ، وان الرجال كانوا يخرون صرعى من اجل الجزائر ويتركون الايام في مهب الرياح ، على الرغم من ان الثورة رعت ، حين انتصرت ، كل هذه الفئات المتضررة من ظلم الاستعمار واضطهاده .

وواضح ان النساج تعمد التركيز على بعض مواطن الضعف في الرواية ، فبتر بعض العبارات بترا ، واوردها منقطعة عن سياقها ، ثم ضمنها مقاله من اجل الاساءة . وهي مغالطة علمية ينهى عنها الطلاب في الجامعة . فهل كل اسلوب الرواية على تلك الصورة التي استشهد بها النساج ؟ ثم ايها افضل اذا كان العيب الفني واقعا : اترك العربية العالية ، ام اصطناع حوار عامي قدر ، لا يفهمه اكثر من قرية الكاتب او حيه ، وهو ما يريد النساج ، وكثير من انصار العمامة امثال النساج ، وذلك حتى يظل الشعب العربي متخلقا لا يتحرك قيد انملة الى الامام ، وحيث لا يفهم عربي عربيا آخر ، الا اذا فصح العمل الادبي . ومشكلة الحوار في القصة ، في الحقيقة ، قضية ادبية كبيرة ، يعاني منها كتاب القصة العرب ، على عهدنا الحاضر . يصطنعون عامية خالصة في الحوار ويستريحون ، ولكن اين الفن الرفيع الذي لا يمكن ان يبيع بعامية قاصرة ؟ ام يصطنعون فصحي ، ولكن اين الواقع ؟ ام يقفون موقفا وسطا فلا هم الى الفن ولا هم الى الواقع ؟ .. ان اصطناع كاتب الرواية تلك اللفة له مبررات نفسية ، سيكتشف

والنساج يعلم ان كاتب الرواية تحدث عن شخصيات ادبية اخرى، كشخصية الشهيد حوحو القصاص ، وسواه ، وانما تعمد ان يذكر ابن باديس لانه كان سلفيا . وهو بذلك ينال من الشعب الجزائري كله الذي يكبر ابن باديس ويسمي باسمه الشوارع والمؤسسات والمدن . فابن باديس كان مناضلا جزائريا قبل كل شيء ، بل يعتبر من اكبر المناضلين العرب اطلاقا . وتمريضك به ، من حيث اردت التمريض بصاحب الرواية ، لا يعني الا شيئا في نفسك معروفا .

ان النساج لو كان ذا ايدولوجية اسلامية ، يقيم الخمس ، ويصوم الشهر ، ويجتمع يوم الجمعة ، لجرينا معه في ذلك واكرمناه . وانه لو كان ذا عقيدة مسيحية ، بروتستانية او غير بروتستانية : يقرأ الانجيل ويحسن التأويل ، ويذهب الى الكنيسة ، ويقيم القداس ، لاحترمناه واكبرناه . وانه لو كان من ينتمي الى اليهودية ، يضع على رأسه الطاقية ، او « ميني » طاقية ، يصلي مع الحواريين في القدس عيد الاضحى ، ولكن في البيعة لا في المسجد الاقصى ، لتركناه وما اختار ... وانه لو كان بوذيا ، سيسبح في الارض زاهدا ، ويصوم الدهر ساجدا عابدا ، لاجلنا . . . وانه لو كان شيوعيا حقيقيا ، يناضل عن الضعفاء ، ويحارب الطبقة والبذخ المفرط ، ويقف المواقف السياسية المشرفة ، لباعناه . وانه لو كان اشتراكيا ، ماركسيا او غير ماركسي ، لجعلناه اخا لنا يتبوا من قلوبنا مكانا . . . ولكن النساج لا ينتمي الى اي من هذه المذاهب ، ولا الى اي من هذه الديانات ، وانما هو مذبذب لا من اولئك ولا من هؤلاء ، ثم يعرض بكتاب الرواية ويكذب عليه ، لانه كتب عن ابن باديس المناضل النظيف . ام كان النساج يريد من صاحب الرواية ان يكتب عن هذه الشياطين التي استجنت في الشهور الاخيرة ، واخذت تطير وتطير ، وكانت من قبل مقعدة لا تسير ! ؟ .

وبعد ، فاننا نرجو ان تحرق نار الرواية ما في نفس النساج من احقاد مترسبة ، بعد ان كانت اججت ما في قلبه من حسد كامن ، وخبث مقيم ، عسى ان يصفو خياله ، فيصلح حاله ، فينضم السى طبقة الكتاب الكبار « الشرفاء » الذين كانوا بالامس القريب يكتبون عن عودة الروح ، فلما غاب صاحب الروح لعنوه على منابرهم ، كما لعنت امية والد ابي الحنفية ، واصبحوا اليوم يكتبون ، بدون حياء ، عن عودة الوعي ، ولا وعي . . . . . !

عبد الملك مرتاض

عنها النقاد حين يصبح النقد علما لا انطباعا وذاتية ، وقد كان النقاد عابوا على طه حسين ، بعض العيب ، اصطناعه تلك اللغة العالبة في « دعاء الكروان » ، و « شجرة البؤس » . ولكن لم يتهم احد طه حسين بانه تعليمي ، وانه انما كان يتهرس على كتابة التعبير . والذي يعود الى شجرة البؤس يجد لفة ادبية في منتهى العلو ، بما في ذلك حوارها . والواقع ان النساج كان في نقده اقليميا متعصبا ، ولم يصدر قط عن فكر قومي متحرر تقدمي .

ومما يزعم النساج في مقاله المشوش ، ان صاحب الرواية لا يملك قاموسا لغويا فنيا ، وهو ، بالطبع ، محض افتراء . لان النساج ، ولنكرر ، لا يستطيع بمنهجه ان يكشف عن هذا القاموس الفني ، كسفا علميا دقيقا ، الا باجراء دراسة مورفولوجية على النص ، تقوم على المعطيات اللسانكرونيزية ، كما فعل باحثون غربيون بديوان بودلير الذي يحمل عنوان : « ازهار الشر » . وكما فعلوا ايضا ، وهذا اهم ، باتقصوصة قصيرة عنوانها : « الصديقان » . فقد استفرقت الدراسة البنوية حولها زهاء ٢٥٠ صفحة ، مع ان نصها لا يجاوز بضع صفحات ولكن ابن النساج من مثل هذا النهج المتطور ، ومع ذلك يدعي لنفسه التطور الخارق ، وهو في الحقيقة لا يجتر الا قشورا من الثقافة المزيفة المضطربة التي لا تنتمي الى القديم الاصيل ، ولا الى الحديث المتطور الذي يصطنع النظريات الغربية المعاصرة . . . واكبر مصيئته انه يعيش على « المحلية » والترجمة . فهو ينتظر عشرات الاعوام من اجل ان ينتفع منقعة ناقصة ببعض ما يترجم من الغرب الى العربية ، ثم يدعي ان صاحب الرواية ، متخلف ، وضيق الرؤية ! فابهما المتخلف !

ومن اتفه ما ورد في مقال النساج قوله : « اما ان ينقل المؤلف ( وهو يصطنع ذلك من باب ازدرائه واستعلائه ) صفحات كاملة من مقالاته حول اللغة العربية ، والتعريب ، وابن باديس ، والثورة الثقافية ، والثورة المسلحة ، ثم يدعي انه يقدم رواية . . . فهذا هو الزيف بعينه » .

ونحن نطالب ، باسم الضمير الادبي ، ان يفتح تحقيق علمي ، حول هذه القضية ، وتقع مقارنة بين نص الرواية ، واثارنا الادبية الاخرى ، حتى نرى من الكاذب المزيف ، ومن الذي يخدع القراء ويخون ثقمتهم .

